ويتفقده بشيء من النفقة ثم ينتقل الى الاخر هكذا حتى يدور على جميعهم وهو يباسطهم ويمزح
معهم ويجبر قلوبهم وبنى دارا للنساء الارامل ودارا للضعفاء الايتام ودارا للملاقيط
ورتب بها جماعة من المراضع كل مولود يلتقط يحمل اليهن فترضعه واجرى على اهل كل دار
ما يحتاجون اليه في كل يوم وكان يدخل اليه في كل يوم وكان يدخل اليهم في كل وقت و
يتفقد احوالهم ويعطيهم النفقات زيادة على المقرر لهم وكان يدخل الى البيمارستان ويقف
على مريض مريض يسأله عن مبيته وكيفية حاله وما يشتهيه وكان له دار مضيف يدخل اليها
كل قادم على البلد من فقيه او فقير او غيرهما وعلى الجملة فما كان يمنع منها كل من قصد الدخول
اليها ولهم الرواتب الدارة في الغداء والعشاء واذا عزم الانسان على السفر اعطوه نفقة ما
يليق بمثله وبنى مدرسة رتب فيها فقهاء الفريقين من الشافعية والحنفية وكان كل وقت
ياتيها بنفسه ويعمل السماط بها ويبيت ويعمل السماع واذا طاب وخلع شيئا من ثيابه سير
للجماعة بكرة شيئا من الانعام ولم يكن له لذة سوى السماع فانه كان لا يتعاطى المنكر ولا
ولا يمكن من ادخاله الى البلد وبنى للصوفية خانقاتين فيهما خلق كثير من المقيمين والواردين
ويجتمع في ايام المواسم فيهما من الخلق ما يعجب الانسان من كثرتهم ولهما اوقاف كثيرة
يقوم بجميع ما يحتاج اليه ذلك الخلق ولا بد عند سفر كل واحد من نفقة ياخذها وكان
ينزل بنفسه اليهم ويعمل عندهم السماعات في كثير من الاوقات وكان يسير في كل
سنة دفعتين جماعة من امنائه الى بلاد الساحل ومعهم جملة مستكثرة من المال يفتكون بها
اسرى المسلمين من ايدي الكفار فاذا وصلوا اليه اعطى كل واحد شيئا وان لم يصلوا اليه فالامنا
يعطونهم بوصية منه في ذلك وكان يقيم في كل سنة سبيلا للحجاج ويسير معه جميع ما
تدعو حاجة المسافر اليه في الطريق ويسير صحبته امينا معه خمسة او ستة الاف دينار ينفقها
بالحرمين على المحاويج وارباب الرواتب وله بمكة حرسها الله تعالى اثار جميلة وبعضها باق الى
الان وهو اول من اجرى الماء الى جبل عرفات ليلة الوقوف وغرم عليه جملة كثيرة وعمر با
لجبل مصانع للماء فان الحاج كان يتضررون من عدم الماء هناك وبنى له تربة ايضا هناك
واما احتفاله بمولد النبي صلى الله عليه وسلم فان الوصف يقصر عن الاحاطة به ولكن نذكر
طرفا من ذلك وهو ان اهل البلاد كانوا قد سمعوا بحسن اعتقاده فيه فكان في كل سنة يصل
من البلاد القريبة من اربل مثل بغداد والموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين وبلاد العجم
وتلك النواحي خلق كثير من الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء ولا يزالون يتواصلون
من المحرم الى اوائل شهر ربيع الاول ويتقدم مظفر الدين بنصب قباب من الخشب كل قبة
اربع خمس طبقات ويعمل مقدار عشرين قبة واكثر منها قبة له والباقي للامراء واعيان دولته
لكل واحد قبة فاذا كان في اول صفر زينوا تلك القباب بانواع الزينة الفاخرة المستجملة
وقعد في كل طبقة جوق من المغاني وجوق من ارباب الخيال ومن اصحاب الملاهي ولم يتركوا
طبقة من تلك الطبقات في كل قبة حتى رتبوا فيها جوقا وتبطل معايش الناس في تلك
المدة وما يبقى لهم شغل الا التفرج والدوران عليهم وكانت القباب منصوبة من باب
الخانقاه والمجاورة للميدان وكان مظفر الدين ينزل كل يوم بعد صلاة العصر ويقف على

قبة قبة الى اخرها ويسمع غناهم ويتفرج على خيالاتهم وما يفعلونه في القباب ويبيت
في الخانقاه ويعمل السماع ويركب عقيب صلاة الصبح يتصيد ثم يرجع الى القلعة قبل الظهر
هكذا يعمل كل يوم الى ليلة المولد وكان يعمله سنة في ثامن الشهر وسنة في الثاني عشر لاجل
الاختلاف الذي فيه فاذا كان قبل المولد بيومين اخرج من الابل والبقر والغنم شيئا كثيرا
زائدا على الوصف وزفها بجميع ما عنده من الطبول والمغاني والملاهي حتى ياتي بها الى
الميدان ثم يشرعون في نحرها وينصبون القدور ويطبخون الالوان المختلفة فاذا كانت
ليلة المولد عمل السماعات بعد ان كان يصلي المغرب في القلعة ثم ينزل وبين يديه من الشموع
المشتعلة شيء كثير ومن جملتها شمعتان او اربع اشك في ذلك من الشموع الموكبية التي تحمل كل
واحدة على بغل ومن ورائها رجل يسندها وهي مربوطة على ظهر البغل حتى ينتهي الى الخانقاه
فاذا كان صبيحة يوم المولد انزل الخلع من القلعة الى الخانقاه على ايدي الصوفية على يد كل
شخص منهم بقجة وهم متتابعون كل واحد وراء الاخر فينزل من ذلك شيء
كثير لا اتحقق عدده ثم ينزل الى الخانقاه ويجتمع الرؤسا والاعيان وطائفة كثيرة من
بياض الناس وينصب كرسي للوعاظ وقد نصب لمظفر الدين برج خشب له شبابيك الى
الموضع الذي فيه الناس والكرسي وشبابيك اخر للبرج ايضا الى الميدان وهو ميدان
كبير في غاية الاتساع ويجتمع فيه الجند ويعرضهم ذلك النهار وهو تارة ينظر الى عرض
الجند وتارة ينظر الى الناس والوعاظ ولا يزالون كذلك حتى يفرغ الجند من عرضهم
فعند ذلك يقدم السماط في الميدان للصعاليك ويكون سماطا عاما فيه من الطعام والخبز
شيء كثير لا يحد ولا يحصى ويمد سماطا ثانيا في الخانقاه للناس المجتمعين عند الكرسي
وفي مدة العرض ووعظ الوعاظ يطلب واحدا واحدا من الاعيان والرؤسا والوافدين
لاجل هذا الموسم ممن قدمنا ذكره من الفقهاء والوعاظ والقراء والشعراء ويخلع على كل
واحد منهم ثم يعود الى مكانه فاذا تكامل ذلك كله حضروا السماط وحملوا لمن يقع
التعيين على حمل داره ولا يزالون كذلك الى العصر او بعدها ثم يبيت تلك الليلة هناك ويعمل
السماعات الى بكرة هكذا دابه في كل سنة وقد ذكرت صورة الحال ملخصا فان الاستقصا
كان يطول فاذا فرغوا من هذا الموسم تجهز كل انسان الى العود الى بلده فيدفع الى كل شخص
منهم شيئا من النفقة وقد ذكرت في ترجمة الحافظ ابي الخطاب بن دحية في حرف العين
المهملة وصوله الى اربل وعمله لكتاب التنوير في مولد السراج المنير وذلك لما راى من اهتمام
مظفر الدين بهذا الامر وانه اعطاه الف دينار سوى ما غرم عليه من الاقامات الوافرة
والجراية مدة اقامته وكان رحمه الله تعالى متى اكل شيئا واستطابه لا يختص به
بل اذا اكل من زبدية لقمة طيبة قال لبعض من بين يديه احمل هذه الى الشيخ فلان او فلانة
ممن هم عنده مشهورون بالخير والصلاح وكذلك يفعل بالفاكهة والحلوا وغير ذلك من
المطاعم والمشارب والكسا وكان كريم الاخلاق كثير التواضع حسن العقيدة سالم البطانة
شديد الميل الى اهل السنة والجماعة لا ينفق عنده من ارباب العلوم سوى الفقهاء والمحدثين ومن
عداهما لا يعطيه شيئا بانبساط كجده في اعطائه لاولئك وكان قليل الاقبال على الشعر واهله

Copyright © King Saud University